مجلة الدراسات الفقهية والقضائية • مجلد: 05، عدد: 01 (2019م) • ص ص07 – 26
EISSN 2588-2481 - ISSN 2477-9806

دور المدرسة الفقهية التواتية في المحافظة على المذهب المالكي من خلال الدرس الفقهي والتأليف

The Role of Jurisprudence school Altoatih In maintaining Maliki's school through the lesson and author books

بقلم

أ. د. مبروك المصري*

جامعة أدرار ـ الجزائر

elmesseri@maktoob.com

ملخص

مما تمتاز به المدرسة الفقهية المالكية المغاربية استمرارية المحافظة على المذهب المالكي، اتباعا وتمذهبا وتأليفا وتدريسا، والمدرسة التواتية ما هي إلا جزء من هذه المدرسة حيث تميزت بعلمائها وطرق تدريسها ومفرداتها. هذا البحث يعالج مسألة دور المدرسة الفقهية التواتية في المحافظة على المذهب المالكي من خلال الدرس الفقهي والتأليف.

الكلمات المفتاحية: إقليم توات؛ المدرسة الفقهية؛ المذهب المالكي؛ التأليف؛ الدرس.

Abstract

The Maghreb School for Maliki is characterized by the conservation of Maliki's school, in terms of follow-up, adhering to doctrine, writing books and teaching. The school Altoatih is only part of this school, where characterized by its scholars, teaching, methods and vocabulary. This research addresses the issue of the role of this school in the preservation of Maliki's school through the Through the jurisprudential lesson and writing books.

Keywords: Touat Territory, Fiqh school, The Maliki school of thought, Authoring; the lesson.

* المؤلف المراسل.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين واهب النعم ومزكي المواهب، ومعلم الخلق أجمعين والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله صلاة وسلاماً دائمين ما دامت السموات والأرض وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

أما بعد :

فاعلم أنّ العلم من أشرف المهن وأعلاها قدراً على الإطلاق، قال الله تعالى : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾، ولذلك لا يطلبه إلا أصحاب الهمم العالية والنفوس الذكية، وقد قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»، ولذلك نجد العلماء تنازعوا هذا الحديث، فكل أهل فنّ يدّعون أنه يخص فَنَّهم، وإن كان الحديث نصَّ على التفقه في الدين، وهو يعني: الفهم الصحيح والدقيق للدين، وبهذا يتضح الأمر وأن المقصود منه هو كل العلوم النافعة، وما جاء الدين إلا لمصلحة العباد في الدارين.

والشريعة الإسلامية التي تعني الدين كما قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ** ﴾[1] تنقسم إلى ثلاثة أقسام[2] :

1- ما يتعلق بالعقائد الأساسية، كالأحكام المتعلقة بذات الله وصفاته وبالإيمان به وبرسله وكتبه واليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، وقد تكفّل بهذا النوع علم الكلام.

2- ما يتعلق بتهذيب النفوس وإصلاحها كالأحكام المبينة للفضائل التي يجب أن يتحلى بها الإنسان، كالصدق والأمانة والوفاء بالعهد والشجاعة والإيثار والتواضع والإحسان، والعفو، والصفح، والأحكام المبينة للرذائل التي يتحتم على المرء أن يتخلى عنها كالكذب، والخيانة، وخلف الوعد، والجبن، والأنانية والتكبر والإساءة إلى الغير والانتقام وما إلى ذلك مما تكفل بيانه علم الأخلاق.

3- ما يتعلق ببيان أعمال الناس وتنظيم علاقاتهم بخالقهم كأحكام الصلاة والصوم والزكاة والحج، وتنظيم علاقات بعضهم ببعض، كأحكام البيوع والهبة والإجارة والرهن والزواج والطلاق وغيرها وقد انفرد بهذا النوع علم خاص يسمى علم الفقه.

فعلم الفقه إذن إن لم يكن هو المقصود من الحديث، فهو مشتمل ضمنه، ويكفيه شرفاً أنه يبين للناس الحلال والحرام، وبه يعرف الإنسان ماله وما عليه، في حق ربه، وفي حق نفسه، وفي حق الآخرين.

ومن ثم نجد الإمام أبا حنيفة يعرف الفقه بأنه «معرفة النفس مالها وما عليها»[3].

وهو يقصد المعنى العام بكلمة الفقه كما كانت تطلق في الصدر الأول ويقصد بها الشريعة والدين.

ـ تعريف الفقه :

الفقه لغة: هو الفهم والفطنة. ويقصد به إدراك دقائق الأمور، ومنه قولهم: وفقه هذه المسألة.[4] وقد عرفه ابن خلدون بقوله : " الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة، وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه"[5].

وهذا على المعنى التخصصي للفظ (الفقه) ذلك لأن مفهوم هذا اللفظ عرف تطوراً فكان يرادف الشريعة والدين ثم أصبح مختصاً بهذا المعنى الأخير.

وهل الفقه يطلق على معرفة الأحكام الشرعية العملية؟ أم يطلق على نفس الأحكام التي تستنبط بالاجتهاد؟.

فكان يطلق تارة ويقصد به المعنى الأول ويكون على هذا تعريفه بأنه: العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية.

ويقصد به أخرى، بأنه: مجموعة الأحكام العملية المشروعة في الإسلام سواء أكانت شرعيتها بنص صريح من القرآن والسنة أم بالإجماع، أم باستنباط المجتهدين من النصوص والقواعد العامة.

ولما شاع التقليد بين المذاهب، أصبح يطلق على مجموعة الأحكام التي نزل بها الوحي صراحة والتي استنبطها المجتهدون وما خرجه المقلدون على قواعد أئمتهم وأصولهم.[6]

ولقد أدركت المدارس القرآنية بتوات هذه المعاني كلها، ولذلك فهي لم تكن إلا

جزءاً من العالم الإسلامي تتأثر به وتؤثر فيه ولم يكن لها بد في طريقة التدريس إلا أن تأخذ بالمعنى الأخير للفقه انطلاقاً من تقليد مذهب الإمام مالك رحمه الله تعالى.

ولم يفتها أيضاً ما يحتويه هذا اللفظ من مضامين، فالفقه نظام شامل ينظم علاقات الإنسان بخالقه، والعلاقات بين الأفراد والجماعات، والدولة الإسلامية بغيرها من الدول في السلم والحرب، ولهذا قسمه الفقهاء إلى قسمين رئيسيين : عبادات وعادات.

وهذا التقسيم مبناه اختلاف المقصود الأصلي منهما، فما كان الغرض الأول منه التقرب إلى الله وشكره وابتغاء الثواب في الآخرة، فهو من قسم العبادات كالصلاة والصيام والحج والجهاد لتكون كلمة الله هي العليا والنذر في القربات.

وما كان المقصود منه تحقيق مصلحة دنيوية، أو تنظيم علاقة بين فردين، أو جماعتين وما شاكل ذلك فهو من القسم الثاني «العادات» كالبيع والإجارة والمزارعة والشركة والحوالة والكفالة والرهن وغيرها.[7]

وثمة تقسيم آخر أكثر تفصيلاً.

وقد أورد الإمام النووي في مقدمة الأربعين النووية ما نصه: فقد روينا عن علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وأبي الدرداء وابن عمر وابن عباس وأنس بن مالك وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من طرق كثيرات ومن روايات متنوعات أن رسول الله ﷺ قال : «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه الله يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء» وفي رواية «بعثه الله فقيهاً عالماً» وفي رواية أبي الدرداء: «كنت له يوم القيامة شافعاً وشهيداً»، ومع كثرة طرقه اتفق الحفاظ على أنه حديث ضعيف[8].

ومع ذلك فإن المعنى الصحيح الذي يتضمنه الحديث لم يفت على المدارس القرآنية التواتية، فكانت دائماً تنطلق في تعليمها وتدريسها انطلاقاً من هذا المعنى، فهي لا ترجوا من وراء ذلك إلا الثواب من الله تعالى، ولذلك تجدها كما كانت جادة جاهدة مرابطة، تنشر دين الله بين عباده، وهي بذلك لم تتمسك بهذا

الحديث فقط كحافز يدفعها إلى العمل بإخلاص، وإنما تنطلق من القرآن الكريم، كيف لا وهي التي تحفظه وتحفظه للأجيال، ومن هذا المعنى (معنى الفقه) تضع نصب أعينها قول الله تعالى : ﴿ **فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾.[9]

أولاـ منهج تدريس الفقه في الزوايا التواتية:

بعد معرفتنا لمعنى الفقه نتحدث الآن عن منهج تدريس الفقه في هذه الزوايا، الإيجابيات والسلبيات وما ينبغي أن يكون.

ـ طرق تحصيل الفقه:

إذا كان من المسلّم به أن الفقه الإسلامي يتحصل بأحد طريقين.

1- الطريقة الأولى: وهي المرتبطة بأن مفهوم الفقه هو " العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية" وهذه الطريقة تعني استفادة الفقه من طريق الاجتهاد.

2- والطريقة الثانية: وهي المرتبطة بالمفهوم الثاني لمعنى الفقه والذي يقصد منه الأحكام الفقهية المستنبطة ذاتها، أي: يحصل عن طريق التقليد.

- أما الطريقة الأولى فهي غير متوفرة، وإن حصلت فإنها طريقة صعبة المراس لا يستفاد منها إلا القلائل الذين يمتازون بالفهم الثاقب والذكاء النابض المتجدد.

- أما الثانية: فلا مناص منها في وقتنا الحاضر ليس فيما يتعلق بالمدارس القرآنية فقط، وإنما تتعين هذه الطريقة على كل المستويات، كما يؤكده علماء العصر.

ـ تحصيل الفقه عن طريق التدرج:

فعلى الراغب في تعليم الفقه أن يدرس الفقه على مذهب معين ينطلق أول ما ينطلق من متن جامع أو منظومة جامعة يتعلم بها فروع الفقه وأبوابه وحيثياته ودقائق أموره، ويتعلم بذلك لغة الفقهاء ومصطلحاتهم، على أن يدرج في ذلك تدرجاً يحصل به المراد.

ويقول ابن خلدون في هذا: "اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً، إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً يلقى عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال

ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائلة، ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ويستوفى الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته، ثم يرجع به وقد شدَّ فلا يترك عويصا ولا مهما ولا معلقاً إلا وضحه وفتح له مغلقة فيخلص سن الفن وقد استولى على ملكته هذا وجه التعليم المقيد وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يُخْلَقُ له ويتيسر عليه..."[10].

وهذا الدرب هو الذي تسلكه المدارس القرآنية بتوات حيث:

1- يتفقه الدارس للفقه على مذهب مالك.

2- ينطلق الدارس من متن مختصر أو منظومة فقهية.

3- ينطلق أولاً من متن أو منظومة ميسورة التعليم.

4 - وقبل ذا وذاك فإنما يحفظها خططاً قبل أن يدرس معانيها.

5- فيبدأ أولاً بمتن ابن عاشر، أو الرسالة.

فيدرس ابن عاشر شرحاً بعدما حفظه. ثم الرسالة شرحاً بعدما حفظها. ثم متن خليل حفظاً ثم شرحاً معمقاً وتتحصل بذلك التكرارات الثلاث التي نص عليها ابن خلدون.

فطريقة التدريس من هذه الزاوية (التدرج) جميلة ولكن الإشكال الذي يطرح هنا أنه قلّما من يستكمل هذه التكرارات الثلاث، ولذلك يكثر حفاظ المتون الفقهية من غير تفقهها. خاصة المختصرات الفقهية التي في أحيان كثيرة تشبه الألغاز.

ولذلك يقول في شأنها العلامة ابن خلدون: الفصل الثامن والعشرون: في أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم. ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم يولعون بها ويدونون منها برنامجاً مختصراً، في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها

بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن، وصار ذلك مخلاً بالبلاغة وعسراً على الفهم، وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريباً للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وابن مالك في العربية. والخونجي في المنطق وأمثالهم، وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل، وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه ولم يستعد لقبولها بعد..."[11].

وهكذا؛ ومع حصول التكرارات فإن التحصيل عن طريقها يكون صعب المنال، لأنها تشغل طالب العلم بحلّ الألفاظ والبحث عن معانيها، عوضاً من كسب الملكة الفقهية التي تمكنه من البحث والنظر، والبحث عن فن آخر من أجل تحصيله تحصيلاً يكسبه ملكة تمكنه من البحث والنظر فيه وهكذا.

وهو الشيء الذي جعل العلماء يشتغلون بشرح هذه المختصرات ثم التحشي عن هذه الشروح ثم التعليق على الحاشية، وهكذا يتيه طالب العلم بين المختصر وبين الشرح من جهة، ويتيه مرة أخرى بين الحاشية والتعليق، مما يجعل التحصيل لا يتأتى إلا للنزر القليل الذين يملكون من القدرات الذهنية ما يمكنهم من تحصيل هذه العلوم.

وقد كان المدرس يمتاز بالحفظ والرواية والدراية مما كان يجعل منهم علماء يلقبون بألقاب خاصة.

"وهكذا فإن ميزة المدرس أو الأستاذ: الحفظ والرواية، فالمدرس الكفء هو الحافظ لعدة علوم مع أسانيدها، وليس المراد حفظ المتون ونحوها، بل حفظ بعض الكتب كاملة كشرح خليل والرسالة وابن الحاجب وغيرها من الكتب والشروح.

وكانت ملكة الحفظ متوفرة وقوية حقاً، فأهل المغرب والعرب عموماً كانوا يمتازون بالحفظ، وكثير منهم كانوا يحفظون القصيدة أو القصة ونحوها من سماعها الأول، ولذلك نجد المترجمين لأهل العلم في الجزائر خلال العهد المدروس (العهد العثماني) يكثرون من عبارة "الحفاظ" لعدة علوم.

وكانت ميزة الجمع بين العلوم أيضاً، فإذا جمع المدرس إلى ذلك حذق الدرس بمفهومه ومنطوقه فهو صاحب (المفهوم والمنطوق) وهي أيضاً من التعابير

الشائعة عند العلماء في هذا العهد"[12].

وعلى هذا فإن الأخذ من طريق المختصرات طريق صعب وطويل حتى يصل به طالب الفقه إلى الفهم والحفظ، واين تلك القدرات في حاضرنا التي تمكن الدارس لتحصيل علم واحد بله عدة علوم وفنون؟

ـ طريقة التدريس.

مما هو معلوم أن المدارس القرآنية تنتهج في تدريسها للفقه بعد حفظ المتن أو المنظومة طريقة قديمة لم تتجدد، فأحد الطلبة يقرأ جزءاً من المتن أو بيتاً أو بيتين من المنظومة الفقهية والشيخ يسترسل في الشرح، والطلبة منصتون بأدب واحترام وهكذا حتى ينتهي الشيخ من الدرس.

ولا شك أن قدرات الطلبة في الفهم تختلف، ولذلك لا يحضر شرح خليل إلا من أكمل حلقات ابن عاشر والرسالة أو غيرهما من المتون غير الجامعة، ومع ذلك فإن التحصيل الذي يتحقق به المفهوم والمنطوق لا يتأتى إلا لأصحاب القدرات المتميزة، وهكذا يضيع الطلبة بين هذه المختصرات والشروح المطولة التي تفوق قدرات بعضهم أو معظمهم في أحيان كثيرة، وهو السر في أننا نفتقد أصحاب المفهوم والمنطوق بالرغم من كثرة الطلبة والدارسين في مدارسنا القرآنية ولا نحظى إلا بنزر قليل من هؤلاء العلماء، وصرنا نخاف عليهم من الاندثار فيندرس بذلك العلم الذي جاهد من أجله أسلافنا رضوان الله عليهم. فإن الله لا ينزع العلم انتزاعاً من صدور الرجال ولكن يأخذه بقبض العلماء كما ورد في الحديث.

ـ مثال تطبيقي لصعوبة المختصرات.

تحدث الشيخ خليل عن بيوع الآجال فقال:

فصل: ومنع للتهمة ما كثر قصده: كبيع، وسلف، وسلف بمنفعة؛ لا ما قل: كضمان بجعل، أو أسلفني وأسلفك، فمن باع لأجل ثم اشتراه بجنس ثمنه من عين وطعام وعرض: فإما نقداً، أو لأجل أو أقل، أو أكثر بمثل الثمن، أو أقل أو أكثر يمنع منها ثلاث وهي ما تجعل فيه الأقل، وكذا لو أجل بعضه، ممتنع ما تجعل فيه الأقل أو بعضه، كتساوي الأجلين، إن شرطا نفي المقاصة للدين

بالدين، ولذلك صح في أكثر لا أبعد إذا اشترطاها، والرداءة والجودة كالقلة والكثرة، ومنع بذهب وفضة إلا أن يعجل أكثر من قيمة المتأخر جداً وبسكتين إلى أجل..."[13].

وتحدث ابن جزئ الفقيه المالكي الحافظ العمدة المتقن فقال:

في بيوع الآجال.

وهي أن يشترى سلعة ثم يبيعها من بائعها ويتصور في ذلك صور كثيرة منها ما يجوز ومنها ما لا يجوز، وبيان ذلك أنه يتصور أن يبيعها منه بمثل الثمن الأول أو أقل أو أكثر ويتصور في كل وجه من ذلك أن يبيعها إلى الأقل الأول أو أقرب أو أبعد وفي معنى الأقرب النقد فتكون الصور تسعاً لأن ثلاثة في ثلاثة بتسعة.

الأولى: أن يبيعها بمثل الثمن إلى مثل الأجل.

الثانية: أن يبيعها بمثل الثمن إلى أبعد من الأجل.

الثالثة: يمثل الثمن بالنقد أو أقرب من الأجل.

الرابعة: أن يبيعها بأقل من الثمن إلى مثل الأجل.

الخامسة: بأقل من الثمن نقداً أو إلى أقرب من الأجل.

فهذه لا يجوز لأنها تؤدي إلى سلف جر منفعة، فإن السابق بالدفع يعد مسلفاً لأن كل من قدم ما لا يحل عليه عد مسلفاً، فهو قد قدم دفع الأقل ليأخذ السلعة إلى ثمنها أكثر مما دفع.

السابعة: أن يبيعها بأكثر من الثمن إلى مثل الأجل.

الثامنة: أن يبيعها بأكثر من الثمن إلى أقرب من الأجل أو نقداً فتجوز هاتان الصورتان.

التاسعة: أن يبيعها بأكثر من الثمن إلى أبعد من الأجل فهذه لا تجوز لأنها تؤدي إلى سلف جر منفعة، فإنه أخره بالثمن ليأخذ أكثر، وكل من آخر شيئاً قد حل له عدّ..."[14].

وهكذا نلاحظ بين نص الشيخ خليل، ونفس ابن جزي فرق واضح من حيث سهولة الفهم وتقريب المعنى.

وعلى هذا ينبغي لمدرس الفقه أن ينتهج نهجاً جديداً في تعليم وتدريس العلوم

عامة، والفقه خاصة، فإنه قل من يقف على الأسرار الفقهية البالغة الدقة في مختصر الشيخ خليل ومن ثم كان على هذه القلة أن تسهل على الدارسين والمتعلمين فهم هذه الأسرار من تتبع طرق جديدة في التدريس من أجل تقريب تلك المفاهيم الدقيقة.

وصحيح ما قيل أن من حفظ المتون حاز الفنون، ولكن الحفظ وحده من غير فهم قد يصير الإنسان كما وصفه المولى جل وعلا: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[15].

فالمدرسة التواتية حافظت على هذا النهج في الدرس الفقهي ولم تحد عنه إلى اليوم، وبهذا يتضح مدى الدور الكبير في المحافظة على المذهب المالكي تعليما وتعلما وتدريسا، مختصر خليل وشروحه المختلفة ومختصر ابن الحاجب ومنظومة المرشد المعين لابن عاشر وشروحه خاصة الميارة، ورسالة ابن أبي زيد القرواني وشروحها، والتحفة لابن عاصم وغيرها من كتب المذهب المالكي التي تحمل مشهور المذهب ومعتمده، حفظا للمتون وشرحا لها في الدروس الخاصة والعامة، فكل درس يلقيه الشيخ هو عبارة عن شرح لكتاب من هذه الكتب أو من غيرها، ويظهر الفرق بين درس العامة والخاصة في المتن المشروح فلا يشرح متن خليل أو متن ابن الحاجب إلا للخاصة ممن تدرجوا في المراحل الثلاث التي تحدث عنها ابن خلدون، بينما يشرح منظومة ابن عاشر ومتن الرسالة للعامة والخاصة، ويختص الخاصة بما يسمى بالوقفات، وقفة الرسالة أو وقفة ابن عاشر حيث يتعمق الشيخ في الدرس، ويورد الإعراب والخلاف الفقهي، ويبين الراجح والمعتمد هكذا درجوا وهكذا هم اليوم.

ـ دور الزوايا التواتية في المحافظة على المذهب المالكي:

أبرز الشيخ محمد باي بلعالم رحمه الله - وهو ابن الزاوية- دور الزوايا في الجزائر عامة وفي توات خاصة في المحافظة على الهوية الوطنية، وعلى المحافظة على المذهب المالكي واستمراريته فيقول:

لقد أدت مؤسسة الزوايا مهمتها النبيلة في ظروف صعبة، وفي ضعف مادي

وقوى معنوية مكنتها من المحافظة على تراث أمتها المسلمة من التلاشي والاندثار، فكان روادها رسل نهضة وحضارة ودعاة خير وبر وإحسان، فقد أدركوا ما تتخبط فيه الأمة الإسلامية إلا من رحم ربك من فقر وجهل وما يسيطر على عقولها من خرافات وشعوذة فعملوا على محو تلك الآثار السلبية الدخيلة على أمتنا والتي هي منابذة للإيمان الكامل وقواعده الصحيحة وبعيدة عن الإسلام وتعاليمه السمحة فلفتوا الأنظار إلى ذلك الواقع المرير داعين الناس إلى الأخذ بأسباب العلم والمعرفة والتمسك بأهداف الدين والرجوع إلى منابعه الصافية البعيدة عن الشعوذات والخرافات التي أصبح السواد الأعظم من المسلمين آنذاك يعتقدون أنها من الدين والدين منها بريء، فظلت الزوايا مركز إشعاع علمي احتضنت ثقافتنا وأصبحت صفحة مشرقة من صفحات تاريخنا وجانباً مثمراً من حضارتنا ربطت السلف بالخلف ووصلت مشرق الأمة بمغربها وقضت على الفروق بين الأعصار والأمصار؛ فإذا المسلمون يلتفون حول كتاب ربهم وسنة نبيهم، ويحكمون الارتباط بأخلاقهم وتقاليدهم. إن هذا الدور الذي قامت به الزوايا جعلها محط اهتمام من المستعمر الغاشم الذي عمد في كثير من الأحيان إلى شل حركتها، ومصادرة أوقافها، وتعطيل المدارس العلمية بها، ورغم ذلك ظلت تلكم القلاع العتيدة تغالب الموج، وتصد التيار الاستعماري الجارف، وتشارك في مسيرة النهضة الوطنية التي كان من دعائمها علماء الدين وفقهاء الشريعة الذين قاوموا بكل ما أوتوه من قوة شراسة المسخ وقوة الاستئصال، مما حفظ للوطن هذا الإسلام كدين وحفظ اللغة العربية كلغة لهذا الدين، ثم حفظ للوطن وأهله شخصيته المتميزة شكلاً ومضموناً[16].

وقد تعمدت نقل نصه هكذا لقوة شهادته وهو من هو في هذا المجال.

وهذه الجداول تبين بوضوح معظم الزوايا في المنطقة التواتية:

1. زوايا منطقة تنجوارارين[17]:

اسم الزاوية	مكانها	اسم مؤسسها	تاريخ التأسيس
زاوية الحاج لحسن الشريف	قنتور- أولاد عيسى	الحاج لحسن الشريف	القرن 08-14
زاوية باد ريان	باريان تيميمون	محمد عبد الله الصوفي	القرن 9-1595
زاوية سيدي عمر	تنركم- شروين	سيدي أحمد الغريب	القرن 9-15
زاوية سيدي موسى والمسعود	تافوست- أولاد عيسى	سيدي موسى والمسعود	القرن 9-15
زاوية سيدي عابد	أولاد عيسى شروين	سيدي عابد	القرن 9-15
زاوية الواجدة	الواجدة تيميمون	سيدي إبراهيم بن أمحمد	القرن 9-15
زاوية سيدي أمحمد بن أحمد	كالي- أولاد سعيد	سيدي أمحمد بن أحمد	القرن 1085-1890
زاوية الحاج بلقاسم	ز.الحاج بلقاسم تيميمون	سيدي الحاج بلقاسم	القرن 10-16
زاوية الحاج بوامحمد	تبلكوزة تنركوك	سيد الحاج بو أمحمد	القرن 10-16
زاوية الدباغ	زاوية الدباغ	سيدي محمد الدباغ	القرن 10-16
زاوية سيدي باسيدي	فاتيس - تنركوك	سيدي محمد بن عبد الله	القرن 10-16
زاوية الشيخ اعمر	تنركوك	سيدي محمد بن عومر	القرن 10-16
زاوية سيدي بوشامية	بلغازي -دلول	سيدي موسى بن أحمد	القرن 11-17
زاوية سيدي عبد الرحمان بن أمحمد بن علي	أغزر أولاد سعيد	عبد الرحمان بن محمد علي	القرن 11-17
زاوية عين حمو	تنركوك	سيد الحاج بلغيت	القرن 11-17
زاوية سيدي زايد	تبرغامين- أوقروت	سيدي زايد	القرن 11-17
زاوية ودغاغ	تنركوك	سيدي محمد بن أبي بكر الودغاغي	القرن 12-16
زاوية مولاي عبد الحكم	كالي–أولاد سعيد	ابنامولاي عبد الحكم	القرن 1308-1890
زاوية تاظليظي	تنركوك	سيدي أمحمد المرفوع	القرن 13-19

2. زوايا منطقة توات[18]:

اسم الزاوية	مكانها	اسم مؤسسها	تاريخ التأسيس
زاوية الشيخ المغيلي	زاوية الشيخ.ز.كنتة	الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي	القرن15 عشر
الزاوية الميمونية	ميمون.تيمي	سيدي محمد الصالح	1016هـ-1607م
زاوية سيدي علي بن حنيني	زاقلو المرابطين.ز.كنتة	الشيخ سيدي علي بن حنيني	القرن 10 هـ
زاوية تليليان	تيليلان.بلدية أدرار	سيدي أحمد بن يوسف	1058هـ-1648م
الزاوية البكرية	زاوية سيد البكري بلدية تمنطيط	الشيخ سيد البكري بن عبد الكريم التمنطيطي	1101هـ-1689م
زاوية مولاي عبد الله الرقاني	زاوية الرقاني. بلدية رقان	الشيخ مولاي عبد الله الرقاني	القرن 11هـ-17م
زاوية سيد أحمد الرقاد	زاوية كنتة	الشيخ أحمد الرقاد	القرن11 هـ-17م
زاوية بن عومر	بودة-أدرار	الشيخ بن عومر	القرن 11هـ-17م
زاوية سيدي حيدة	بودة-أدرار	الشيخ بن عومر	القرن11هـ-17م
زاوية سيد الحاج المختار	الجديد بلدية تامست	الشيخ سيدي المختار الكنتي	القرن12هـ-18م
زاوية سيدي باحمو	زاجلو.ز.كنتة	الشيخ سيدي باحمو بن حنيني	القرن12هـ-18م
سيدي أحمد بن سيدي باحمو	زاجلو. ز.كنتة	الشيخ أحمد بن سيدي باحمو	القرن12هـ-18م
زاوية سيدي مولاي الحسان	مكيد.ز.كنتة	الشيخ مولاي الحسان	القرن12-18م
زاوية سيدي أحمادو	زاجلو المرابطين.ز.ك	الشيخ سيدي أحمادو	القرن 12هـ-18م
زاوية مهدية	مهدية.بلدية تيمي	الشيخ بن عومر	القرن 1207هـ-1792

3- زوايا منطقة تيديكلت[19]:

اسم الزاوية	مكانها	مؤسسها	تاريخ التأسيس
زاوية مولاي هيبة	بلدية تمقطن	سيدي ابي الانوار مولاي هيبة	القرن12هـ-18م
زاوية الشيخ الركب النبوي	بلدية أقبلي	سيدي محمد بن عبد الرحمان أبي نعامة	1137هـ-1724م

4- زوايا منطقة الازواد[20]:

اسم الزاوية	مكانها	مؤسسها	تاريخ تأسيسها
زاوية أبي الأنوار	حاضرة المبروك (الأزواد)	الشيخ أبي الأنوار	القرن1125هـ-1713م
زاوية الشيخ سيدي المختار الكبير	حلة الأزواد.(متنقلة)	الشيخ المختار الكبير	القرن 12هـ18م
زاوية الشيخ محمد بن المختار الكبير	تمبكتو	الشيخ محمد بن الشيخ المختار الكبير	القرن 13هـ-19م
زاوية الشيخ أحمد البكاي	تمبكتو	الشيخ أحمد البكاي	القرن 13هـ-19م

ثانيا ـ دور التأليف الفقهي في المحافظة على المذهب بالمنطقة التواتية.

لقد وضع علماء توات بصمتهم الناصعة في التأليف الفقهي المالكي، وتتضح هذه البصمة من خلال المؤلفات الفقهية والتي تدور في فلك الفقه المالكي، وهذه بعض النماذج:

1) العاقب المسوفي (ت950هـ-1544م).

تتلمذ الشيخ العاقب بن عبد الله الأنصمي المسوفي الأكدزي السوداني على يد الشيخ المغيلي، وكان فقيهاً ذكياً، ألف كتباً منها:

- الجواب المجدود عن أسئلة القاضي محمود - وأجوبة الفقير عن أسئلة الأمير.
- تأليف في وجوب الجمعة في قرية انصمن.
- تعاليق على مختصر خليل.

وقد ذهب إلى المشرق في رحلة علمية خاصة تتعلق بوجوب الجمعة على أهل قرية، حينما خالفه أهل بلده، ووافقه المشارقة لما كان رأيه صواباً[21].

2) الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني التواتي.

هو ابن تلمسان ومع ذلك انتقل منها إلى فاس ثم إلى توات بحثاً عن الاستقرار الروحي، لأنه عرف واشتهر بالحركية فكان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، ويكفي

في قوله عن نفسه عندما غادر تلمسان.

تلمسان أرض لا تليق بحالنا ولكن لطف الله نسأل في القضا

وكيف يحب المرء أرضاً يسوسها يهود وفجار ومن ليس يرتضى

اشتغل بالتدريس في تلمسان وفي السودان وفي توات حيث زاويته النورانية وكان داعية مرشداً وأهم ما أشتغل به تصحيح العقيدة، وكان مفتياً وقاضياً بتوات، كما أنه اشتغل بالسياسة، حيث كان مستشاراً لسلطان" كانو" وألف كتباً في ذلك، ومع ذلك له آثار في التأليف وكانت تآليفه قد اشتملت على موضوعات عدة: اللغة العربية وآدابها، والمنطق، والأخلاق، والسياسة، والتاريخ، والسير والعقيدة، والتفسير والحديث النبوي الشريف والفقه والفرائض.

ولما كان الشيخ المغيلي مالكي المذهب انتقل به المذهب إلى حيث انتقل نظراً لتأثيره الكبير الذي عرف به واشتهر، وقام بتآليفه في الفقه المالكي بانتشار المذهب المالكي عبر توات والسودان الغربي حيث تلاميذه الكثر وآثاره الفقهية الشاهدة على جودة فقهه وعلمه، ومن بين هذه المؤلفات الفقهية:

- مغني النبيل شرح مختصر خليل وهو شرح موجز لم يكتمل حيث بلغ فيه إلى "القسم بين الزوجات".

- الكليل المغني وهو حاشية على كتابه مغني النبيل شرح مختصر خليل.

- الوجيز الكافي للرجل الزاكي، وهو شرح موجز على مختصر خليل أيضاً.

- التاج الوجيد الكافي، وهو شرح لخطبة مختصر خليل.

- إيضاح السبيل في بيوع آجال خليل، وهو شرح لبيوع الآجال من مختصر خليل.

- إفهام الأنحال شرح بيوع الآجال لابن الحاجب، وهو شرح لبيوع الآجال من مختصر ابن الحاجب.

- المختصر في علم الفرائض.

- المفروض في علم الفرائض.

وهكذا يتضح دور الشيخ المغيلي في المحافظة على المذهب المالكي عبر الأجيال من خلال تآليفه، والتي تمتاز بالإيجاز والوضوح، وهي تدور حول أمهات كتب الفقه المالكي (مختصر خليل، ومختصر ابن الحاجب)، التي تمتاز بالطابع النصي المذهبي حيث تعتمد ما اعتمده الشيخ خليل في مختصره، وهكذا لم تكن الإشارة إلى المذاهب الأخرى بالرغم من تبحر المغيلي، والطابع الحركي الدعوى الذي امتاز به رحمه الله تعالى.

3 -محمد بن أبّ المزمري ت1160هـ[22].

كان أديباً مفوهاً رحمه الله تعالى، ويكفي فيه أنه ألف قصيدة من عشرة أبيات معكوسة تقرأ من الجهتين وهي ما تسمى عند أهل البديع بالمقلوب:

ادْر كـلام كـابر ربّاك مالك ردا

أدّبْ وكفَّ أرسنا إن سر إفك وبدا

نظم رحمه الله تعالى منظومة في السهو في الصلاة على مذهب مالك بحيث من حفظ هذه المنظومة، كفته في إصلاح صلاته كيفما كان السهو فيها، وسماها بالعبقري، في 159 بيتاً.

وافتتحها بقوله:

الحمـد لله الجزيـل النعـــم مرشد من عن سبل الحق عم

ثم صلاة الله يتلوها السـلام على رسول الله سيد الأنـام

وبعد فاعلم إنني قصـدت إنجاز ما كنت به وعـــدت

من نظم سهو الشيخ الأخضري معتـــذراً لكـل لـو ذعي

وهي قصيدة يحفظها طلبة الزوايا ويتدارسونها فكانت نبراساً وضاءً فريداً في فنه.

4 - الشيخ الطاهر بن عبد المعلي السباعي، المعروف بالشيخ مولاي أحمد الطاهري 1325هـ ت1390هـ له تآليف عدة من بينها:

- فتوحات الإله المالك على النظم المسمى بأسهل المسالك، وفيه أربعة أجزاء من اطلع عليه وقرأه أقر بعلمه وتبحره وسنيته ومحاربته للبدع والمبتدعين.

- العقد الجوهري شرح العبقري.

- النحلة في حلق اللحية.

- نبذة في تحقيق الطلاق الثلاث في كلمة واحدة.

- رفع الحرج والملام على المال المشكوك بالحرام.

- فتاوى عديدة في نوازل سديدة.

5 -الشيخ محمد باي بلعالم[23].

يعتبر الشيخ باي محمد بن عبد القادر بن محمد بن المختار بن أحمد العالم(1930م-1349هـ –2009-1430هـ) من أبرز الشخصيات العلمية تأثيرا وتأثرا، وأكثر المعاصرين أثرا علميا، كيف لا والشيخ ابن الشيخ وتلميذ الشيخ مولاي أحمد الطاهري رحم الله الجميع، له تآليف عزيزة في شتى الفنون (الفقهية والحديثية واللغوية والأصولية، نظما ونثرا). ومن هذه الكتب التي ساهمت في المحافظة على المذهب المالكي:

1-فتح الرحيم المالك في مذهب الإمام مالك (نظم يحتوي على 2509بيت).

2-ملتقى الأدلة الأصلية والفرعية الموضحة للسالك على فتح الرحيم المالك (أربعة أجزاء).

3- زاد السالك شرح أسهل المسالك.

4 - الجواهر الكنزية نظم متن العزية.

5 - أنوار الطريق لمن يريد حج بيت الله الحرام.

6- إقامة الحجة بالدليل شرح على نظم ابن بادي على مهمات من مختصر خليل.

وهذه الإشارات تكفي على إثبات الدور البارز لعلماء توات في المحافظة على المذهب المالكي في الجزائر عامة وفي توات خاصة .

– دور النوازل وكتب النوازل في ترسيخ المذهب المالكي والمحافظة عليه[24]:

فإذا كان الدرس الفقهي، درسا فقهيا مالكيا خالصاً، فإن التأليف الفقهي كان كذلك تأليفاً فقهياً مالكياً خالصاً، وكانت الفتوى فيما يقع للناس وينزل بهم فتوى فقهية مالكية أيضاً، ولعل أبرز كتب النوازل:

- غنية المقتصد السائل فيما وقع بتوات من القضايا والمسائل، تناولت العديد من المسائل ذات الصلة بالمجتمع التواتي، بأبعاد مختلفة، دينية واجتماعية واقتصادية وقانونية وتاريخية، جمعها أولا الشيخ سيدي الحاج بن عبد الرحمن البلبالي، ثم أتم العمل بعده ابنه: الشيخ سيدي عبد العزيز، ثم رتبت على يد الشيخ سيدي أحمد لحبيب ابن امحمد بن عبد الله بن إبراهيم البلبالي، وهكذا حق لها بأن تسمى بالبلبالية.

ويعتبر انتشارها دليلا على قوة تأثيرها في كل توات، وكيف لا يكون لها ذلك التأثير وهي فتاوى لشيوخ كبار عظام، من أمثال :الشيخ سيدي عبد الرحمن بن باعومر 1189 والشيخ الزجلاوي 1212 والشيخ سيدي الحاج البلبالي 1244 وغيرهم.

الخاتمة

تعتبر هذه الكلمات حول المدرسة الفقهية التواتية والمقدمة لملتقاكم هذا، حول: دور الفقهاء الجزائريين في المحافظة على المذهب المالكي. من القليل الذي يبرز الدور الحقيقي لفقهاء توات، وكيف أنهم ساهموا في المحافظة على المذهب المالكي بالجزائر، حيث المحافظة على الهوية الوطنية بكل جلاء ووضوح، وتأكد زعمنا من أنها مدرسة فقهية لها رجالها ومميزاتها ومفرداتها، وهذه هي معايير المدرسة، ولا نقول هذا من باب التعصب بحكم الانتماء، وإنما هي الحقائق المسجلة قديما وحديثا.

فالدرس الفقهي، والتأليف، والزوايا ونشاطاتها عبر تاريخها في توات حيث وجدت الزوايا فيه بوجوده – كما قال ابنها الشيخ باي بلعالم- إضافة إلى الفتاوى المدونة، وكل ذلك لا يخرج عن الفقه المالكي، ولا يزال الدرب مستمرا

بنفس الوتيرة ويكفي أن نعطي مثالا يوضح حقيقة الدور الذي تقوم به زوايا توات، في التسعينيات كان عدد الطلبة في زاوية الشيخ بلكبير رحمه الله تعالى يناهز الألف طالب من مختلف أنحاء الوطن ومن خارج الوطن جزاهم الله ألف خير، هكذا سجل علماء وفقهاء توات بصمتهم في المحافظة على المذهب المالكي في الوطن وفي خارجه، ولا يزالون .

والله من وراء القصد نسأله الصدق فيه والإخلاص.

ـ الهوامش:

1- سورة آل عمران، الآية: 19.

2 - المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي – محمد مصطفى شلبي- دار النهضة العربية.

3 - المدخل، محمد مصطفى شلبي ص: 32.

4 - معجم لغة الفقهاء – محمد رواس قلعجي و د.حامد صادق قنيبى – دار النفائس، بيروت، ص:348.

5- ابن خلدون – المقدمة- ص: 445 طبعة دار القلم.

6 - المدخل – محمد مصطفى شلبي- ص32،33.

7 - المدخل – محمد مصطفى شلبي- ص33،34.

8 - الإمام النووي - الأربعين النووية – منشورات المكتبة العصرية، بيروت– ص6.

9 - سورة التوبة، الآية: (122).

10- ابن خلدون، المقدمة، ص533.

11 - ابن خلدون، المقدمة ص532.

12 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16-20م) 351/1.

13 - مختصر الشيخ خليل، ص176-118، دار الشهاب.

14 - ابن جزي، القوانين الفقهية، ص178-179، دار القلم.

15 - سورة الجمعة، الآية رقم 05.

16 - الرحلة العلية إلى منطقة توات لفضيلة الشيخ محمد باي بلعالم، ص327-328.

17 - انظر: الرحلة العلية إلى منطقة توات، المرجع السابق، ص418؛ وانظر: د. حوتية محمد،

توات والأزواد، ج2، ص551.

18 - انظر: الرحلة العلية إلى منطقة توات، مرجع سابق، ص418؛ وانظر: د. حوتية محمد، توات والأزواد، المرجع السابق، ص551.

19 - انظر: الرحلة العلية إلى منطقة توات، مرجع سابق، ص418؛ وانظر: د. حوتية محمد، توات والأزواد، مرجع سابق، ص551.

20 - انظر: الرحلة العلية إلى منطقة توات، مرجع سابق، ص418؛ وانظر: د. حوتية محمد، توات والأزواد، مرجع سابق، ص551.

21 - حدة نويجم، ص33 فما بعدها.

22 - أحمد أبا الصافي جعفري، محمد بن أب المزمري، 1160هـ، حياته وآثاره، ص71و79.

23 - د.أحمد أباالصافي جعفري – من تاريخ توات أبحاث في التراث ص:155.

24 - د.أحمد أباالصافي – من تاريخ توات نفس المرجع ص545.